المحاضرة السادسة الأنثروبولوجيا النفسيّة

تمهيد:

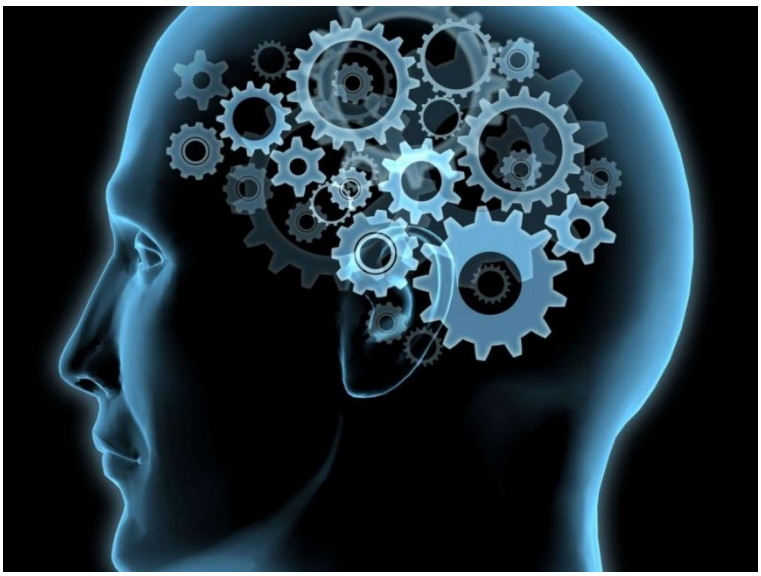

تسمّى الأنثروبولوجيا النفسيّة أيضاً الثقافة والشخصيّة وذلك بالنظر إلى العلاقة الوثيقة بين الثقافة والشخصيّة الإنسانية فقد أثبتت بعض الدراسات أنّ التطابق في التقييمات المستقلّة للمعلومات التي جمعت بقصد دراسة معدل الثقافة و الشخصيّة بلغ حدّاً كبيرا يدلّ على توقّع حدوث تعاون مثمر بين الأنثروبولوجيين والتحليل النفسي في الأبحاث أخرى.

فموضوع الأنثروبولوجيا النفسية يتحدّد إذن في العلاقة بين الثقافة والشخصيّة هذه العلاقة التي تسير في اتّجاهين متكاملين اتّجاه يأخذ أثر الثقافة في الشخصيّة واتّجاه يأخذ أثر الشخصيّة في الثقافة

ومن هنا فقد ساعد ظهور الأنثروبولوجيا النفسيّة علماء النفس في الوصول إلى فهم أفضل للمبادئ التي تحكم تشكيل الشخصيّة وأثار في الوقت ذاته اهتمام علماء الأنثروبولوجيا لدراسة الأنماط الأساسية للشخصيّة في المجتمعات المختلفة القديمة وحديثة.

أولا- مفهوم الشخصيّة وطبيعتها

احتلّت الشخصيّة الإنسانية والعوامل المؤثّرة في تكوينها، مكانة هامة في الدراسات النفسيّة والاجتماعية وذلك بقصد التعرّف إلى مكوّنات هذه الشخصيّة وكيفيّة تكيّفها وتفاعلها مع البيئة المحيطة وبما يتيح نمو الشخصيّة وتطوّرها.

وعلى الرغم من الاتفاق على وحدة هذه الشخصيّة وتكاملها كنتاج اجتماعي وكمحرّك لتصرّفات الفرد ومواقفه الحياتية من جهة أخرى، فقد تعدّدت تعريفاتها تبعاً للنظر إليها من جوانب متعدّدة

فانطلاقاً من أنّ الشخصيّة تعبّر عن الجوهر الاجتماعي الحقيقي للإنسان، فقد عرّفها رالف لينتون بأنّها " : المجموعة المتكاملة من صفات الفرد العقلية والنفسية أي المجموع الإجمالي لقدورات الفرد العقلية وإحساسا ته ومعتقداته وعاداته واستجاباته العاطفية المشروطة. "

كما تعرف بأنها " :تنظيم ثابت لدرجة ما للقوى الداخلية للفرد وترتبط تلك القوى بكلّ مركّب من الاتجاهات والقيم والنماذج الثابتة بعض الشيء والخاصة بالإد ا رك الحسّي .

وهكذا يعبّر مفهوم الشخصيّة عن الوصف الاجتماعي للإنسان والذي يشمل الصفات التي تتكوّن عند الكائن البشري من خلال التفاعل مع المؤثّرات البيئية والتعامل مع أفراد المجتمع بصورة عامة وهذا ما يعبّر عنه بالجوهر الاجتماعي للإنسان أي أنّها مجموعة الخصائص والصفات التي تميّز فرداّ إنساناً بذاته من غيره في البنية الجسدية العامة وفي الذكاء والطبع والسلوك العام.

وبناء على ما تقدّم، يمكن القول إنّ الشخصيّة الإنسانية تتّسم بالخصائص التالية :

-**النمو والتكامل :** فالشخصيّة تنمو وتتطوّر في وحدة متكاملة من خلال تآزر سمات هذه الشخصيّة وقد راتها وعملها بصورة مستمرّة ومتفاعلة مع مواقف الحياة المختلفة ولا سيّما تفاعل الإنسان مع بيئته وأنماط التنشئة الاجتماعية المتعددة التي يتعرّض لها، وبالتالي استجابة هذه الشخصيّة بعناصرها الكاملة، في أثناء التعامل مع هذه المواقف المتنوّعة.

-**الهويّة الشخصيّة الذاتية :**وتعني شعور الفرد بأنّه هو ذاته وإن حدثت له تغيّرات جسدية ونفسيّة عبر مراحله النمائية فمن طبيعة الإنسان أن يتغيّر ويتبدّل من يوم إلى آخر بحكم قانون التطوّر والذي يشمل جوانب الشخصيّة كافة من بداية الحياة وحتى نهايتها غير أنّ هويته الأساسيّة تبقى هي ذاتها على الرغم من التغيرات الجسدية أو الوجدانية التي تحدث بفعل عاملي العمر والثقافة.

-**الثبات والتغيّر :**أي أنّ خاصية الثبات في الشخصيّة الإنسانية مستمرّة ما دام الشخص على قيد الحياة وفي المقابل فهذه الشخصيّة تابعة لخاصية التغيّر والتطوّر التي تحدث بفعل المؤثّرات المحيطة بالشخص والتي تتفاوت في شدّة فاعليتها لإحداث التغيّرات التطوّرية وهذا الثبات الذي يتجلّى في الأعمال وأسلوب التعامل مع

الآخرين وفي البناء الداخلي والخارجي للشخص بما في ذلك الدوافع والاهتمامات والاتجاهات والخبرات هو الذي يسمح أحياناً بالتنبّؤ المستقبلي لهذه الشخصيّة.
والخلاصة أنّ الشخصيّة تنمو وتتطوّر من خلال التفاعل المستمرّ مع ما يحيط بها وكما أنّ الثبات سمة أساسية للشخصيّة فالتغيّر والتطوّر أيضاً سمتان ملازمتان للشخصيّة واذا كان الاهتمام بدراسة الشخصيّة قليلاً في المجتمعات القديمة نظرا لعدم النظر إلى الفرد كوحدة متكاملة فإنّ تعقّد المشكلات الاجتماعية / الإنسانية، وتطوّر النظرة إلى دور الإنسان فيها أدّى إلى زيادة الاهتمام بدراسة طبيعة الشخصيّة الإنسانية لاكتشافها وإيجاد أفضل الطرائق للتعامل معها وتوظيف قد ا رتها.

ثانيا-مفهوم الثقافة وخصائصها

تعدّ الثقافة عاملاً هامّاً في تصنيف المجتمعات والأمم وتمييز بعضها من بعض وذلك بالنظر لما تحمله مضمونات الثقافة من خصائص ودلالات ذات أبعاد فردية واجتماعية وإنسانية أيضا ولذلك تعدّدت تعريفات الثقافة ومفهوماتها وظهرت عشرات التعريفات ما بين منها ما أخذ بالجوانب المعنوية الفكرية أو بالجوانب الموضوعية المادية أو بكليهما معاً باعتبار الثقافة في إطارها العام تمثّل سيرورة المجتمع الإنساني وإبداعاته الفكرية والعلميّة.

-مفهوم الثقافة:

ولعلّ أقدم تعريف للثقافة وأكثرها شيوعاً ذلك التعريف الذي وضعه ادوارد تايلور والذي يفيد بأنّ الثقافة هي ذلك الكلّ المركّب الذي يشتمل على المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعادات وغيرها من القدرات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع .
وعرّفها روبرت بيرستيد بقوله "إنّ الثقافة هي ذلك الكلّ المركّب الذي يتألف من كلّ ما نفكّر فيه أو نقوم بعمله أو نمتلكه كأعضاء في مجتمع. "
وربّما يكون أحدث مفهوم للثقافة هو ما جاء في التعريف الذي اتّفق عليه في إعلان مكسيكو عام 1982 والذي ينصّ على أنّ الثقافة – بمعناها الواسع – يمكن النظر إليها على أنّها " : جميع السمات الروحية والمادية والعاطفية التي تميّز مجتمعاً بعينه أو فئة اجتماعية بعينها وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والمعتقدات والتقاليد. "

-خصائص الثقافة:

تعدّ الحياة الاجتماعية في أي مجتمع نسيجاً متكاملاً من الأفكار والنظم والسلوكات التي لا يجوز الفصل فيما بينها باعتبارها تشكّل التركيبة الثقافية في المجتمع و إلى درجة تحدّد مستوى تطوّره الحضاري و إذا كان التأثير البيولوجي للإنسان في الثقافة معدوماً على المستوى الاجتماعي، باستثناء بعض الحالات الفردية الاستثنائية) الشاذة فإنّ تأثير العامل الثقافي على الوجود البيولوجي هو تأثير فاعل ومحسوس ليس على مستوى الفرد فحسب بل على مستوى المجتمع بوجه عام ولذلك فكما يتمّ اصطفاء النوع، يتمّ اصطفاء الثقافة على أساس تكيّفها مع البيئة وبمقدار ما تساعد الثقافة أعضاءها في الحصول على ما يحتاجونه وفي تجنّب ما هو خطر فإنّها تساعدهم على البقاء .
واستناداً إلى هذه المعطيات، فإنّ ثمّة خصائص تتّسم بها الثقافة، بحسب مفهومها وطبيعتها ومن أبرز خصائص هذه الثقافة أنّها:

1-إنسانية : فالإنسان هو الحيوان الوحيد المزوّد بجهاز عصبي خاص و بقدورات عقلية فريدة تتيح له ابتكار أفكار جديدة وأعمال جديدة فالإنسان – على سبيل المثال– انتقل من المناطق الدافئة إلى المناطق الاستوائية وتكيّف معها باحث أعمال جديدة وملابس ومساكن تخفّف من الحرارة والرطوبة وانتقل من طور مرحلة جمع القوت إلى طور الصيد ومن ثمّ إلى طور الرعي والزراعة من دون أن تظهر عنده أيّة تغيّرات عضوية تذكر وإنّما الذي تغيّر هو ثقافته أي مجموع أفكاره وأعماله وسلوكاته.

2-مكتسبة :يكتسب الإنسان الثقافة من مجتمعه منذ ولادته وعبر مسيرة حياته وذلك من خلال الخبرات الشخصيّة .وبما أنّ كلّ مجتمع إنساني يتميّز بثقافة معيّنة محدّدة الزمان والمكان، فإنّ الإنسان يكتسب ثقافة المجتمع الذي يعيش فيه منذ الصغر ولا تؤثّر العوامل الفيزيولوجية في عملية الاكتساب أي أنّ عملية التنشئة الاجتماعية الثقافية، هي العملية التي تقوم بنقل ثقافة المجتمع إلى الطفل ومهما كانت السلالة التي ينتمي إليها الفرد فإنّه يستطيع أن يلتقط ثقافة أي مجتمع بشري إذا ما عاش فيه فترة زمنية كافية.

3-اجتماعية :بما أنّ الثقافة هي نتاج اجتماعي أبدعته جماعة معيّنة فإنّ دراسة الثقافة لا تتمّ إلاّ من خلال الجماعات و المجتمعات وذلك لأنّ هذه الثقافة تمثّل عادات المجتمعات وقيمهم وليست عادات الأفراد كأفراد و إن كانت النظم الثقافية تختلف في مدى شموليتها الاجتماعية فهناك نظم تطبّق على أفراد المجتمع جميعهم وفي المقابل هناك نظم كثيرة ولا سيّما في الثقافات المتمدّنة لا تطبّق إلاّ على جماعة معيّنة داخل المجتمع الواحد ولا تطبّق على الجماعات الأخرى وهذا ما يدخل في الثقافات الفرعية .

4-تطوّرية تكاملية : على الرغم من أنّ لكلّ جماعة بشرية معيّنة ثقافة خاصة بها إلاّ أنّ هذه الثقافة ليست جامدة بل هي متطوّرة مع تطوّر المجتمع من حال إلى حال أفضل وأرقى ولا يتمّ التطوّر في جوهر الثقافة ومحتواها فحسب وإنّما أيضاً في الممارسة والطريقة العملية لسلوكات الإنسان الذي يعيش في المجتمع المتطوّر وهذا التطوّر لا يعنى أنّ كلّ مرحلة ثقافية منعزلة عن الأخرى بل ثمّة تكامل ثقافي في ثقافة المجتمع الواحد وذلك لأنّ الثقافة بتكاملها، تشبع حاجات الإنسان المادية والمعنوية وهي تجمع بين المسائل المتّصلة بالروح والفكر وبين المسائل المتّصلة بحاجات الجسد أي أنّه تحقّق التكامل بين الحاجات البيولوجية والنفسية والاجتماعية والفكرية والبيئية.

5-استمرارية انتقالية :بما أنّ الثقافة تنبع من وجود الجماعة ورضاهم عنها وتمسّكهم بها فهي بذلك ليست ملكاً لفرد معيّن ولا تنحصر في مرحلة محدّدة لذا لا تموت الثقافة بموت الفرد لأنّها ملك جماعي وتراث يرثه أفراد المجتمع جميعهم كما أنّه لا يمكن القضاء على ثقافة ما إلاّ بالقضاء على أفراد المجتمع الذي يتبعها أو بتذويب تلك الجماعة التي تمارس هذه الثقافة.

ثالثا: الثقافة والشخصيّة

إنّ شخصيّة الفرد تنمو وتتطوّر من جوانبها المختلفة داخل الإطار الثقافي الذي تنشأ فيه وتعيش وتتفاعل معه حتى تتكامل وتكتسب الأنماط الفكرية والسلوكية التي تسهّل تكيّف الفرد وعلاقاته بمحيطه الاجتماعي العام.
وليس ثمّة شكّ في أنّ الثقافة مسؤولة عن الجزء الأكبر من محتوى أية شخصيّة وكذلك عن
جانب مهمّ من التنظيم السطحي للشخصيّات وذلك عن طريق تشديدها على اهتمامات أو أهداف
معيّنة ويكمن سرّ مشكلة العلاقة بين الثقافة والشخصيّة في السؤال التالي " إلى أي مدى يمكن اعتبار الثقافة مسؤولة عن التنظيم المركزي للشخصيّات؟ أي عن الأنماط السيكولوجية؟ وبعبارة أخرى :هل يمكن للتأثيرات الثقافية أن تنفذ إلى باب الشخصيّة وتعدّلها؟ "

إنّ الجواب على هذا التساؤل يكمن في أنّ عملية تكوين الشخصيّة هي عملية تربوية تعلمية تثقيفية، حيث يجري فيها اندماج خبرات الفرد التي يحصل عليها من البيئة المحيطة مع صفاته التكوينية لتشكّل معاً وحدة وظيفيّة متكاملة تكيّفت عناصرها بعضها مع بعض تكيّفاً متبادلا وإن كانت أكثر فاعلية في مراحل النمو الأولى من حياة الفرد.

و إذا كانت المفاهيم العلمية الأولى تصف سلوك الإنسان وتربطه بعدد من الدوافع والسمات
العامة فإنّ العلم الحديث يؤكّد أهميّة العوامل النفسية والاجتماعية والقيم السائدة في المجتمع، التي
تظهر في هذا السلوك.

فالثقافة إذن ترتبط بالشخصيّة، حيث تكوّن ا رفداً أساسياً من روافد هذه الشخصيّة وتحدّد سماتها .ولذلك، فإنّ دراسة الثقافة والشخصيّة تمثّل نقطة التقاء بين علم النفس وعلم الإنسان الأنثربولوجيا فلا يمكن فهم أي شخص فهماً جيّداً من دون الأخذ في الاعتبارات الثقافية التي نشأ عليها .كما لا يمكن فهم أي ثقافة إلاّ بمعرفة الأفراد الذين ينتمون إليها ويشاركون فيها وتتجلّى بالتالي في سلوكاتهم الملحوظة حيث تبدو تأثيرات الثقافة على الفرد في النواحي التالية :

-الناحية الجسمية :إنّ الثقافة السائدة لدى شعب من الشعوب، كثيرا ما تجبر الفرد بما لها من قوّة جبرية وسيطرة مستمدّة من العادات والقيم والتقاليد -على أعمال وممارسات قد تضرّ بالناحية الجسمية ضررا كبيرافعلى سبيل المثال : كانت العادات لدى بعض الطبقات المرفهّة في الصين أن تثنى أصابع الطفلة الأنثى وتطوى تحت القدم وتلبس حذاء يساعد في إيقاف نموّ قدمها ويجعلها تمشي مشية خاصة فعلى الرغم من التشوّه الذي يحصل للقدم فقد كانت تلك المشية بالإضافة إلى صغر القدم من أهم دلائل الجمال.

-الناحية العقلية : لا شكّ في أنّ الثقافة بأبعادها المادية والمعنوية، تؤثّر تأثيرا فاعلاً في الناحية العقلية للشخصية ولا سيّما من الجانب المعرفي الفكري فالفرد الذي يعيش في جماعة مجتمع تسود ثقافتها العقائد

الدينية أو الأفكار السحرية تنشأ عقليته وأفكاره متأثّرة بذلك فالمعتقدات التي تسود في المجتمع الهندي أو الصيني، غير تلك المعتقدات التي تسود في المجتمع الأمريكي أو العربي.

-**الناحية الانفعالية :** يتضمّن الجانب الانفعالي ما لدى الشخص من الاستعدادات والدوافع الغريزية الثابتة نسبياً والتي يزوّد بها منذ تكوينه وطفولته وتعتمد على التكوين الكيميائي والغددي والدموي وتتّصل اتصالاً وثيقاً بالنواحي الفيزيولوجية والعصبية .وتؤكّد الدراسات الأنثروبولوجية أنّ للثقافة دورا كبيرا في تربية مزاج الشخص وتهذيب انفعالاته.

-**الناحية الخُلُقية :** تستند إلى الناحيتين العقلية والانفعالية باعتبارهما المواد الخام التي تبنى عليها الصفات الخُلُقية ولذا فإنّ الأخلاق السائدة في المجتمع، هي الحصيلة الناتجة من تفاعل القوى العقلية والانفعالية مع عوامل البيئة أي أنّ النواحي الأخلاقية أكثر قرباً إلى العوامل البيئية والوسط الاجتماعي والثقافة المهيمنة على الشخص فلكلّ ثقافة نسق أخلاقي خاص ينساق فيه الفرد متأثرا بالمعايير الأخلاقية السائدة من ناحية الخير والشر والصواب والخطأ وما يجوز وما لا يجوز و إن كانت هذه المعايير نسبيّة تختلف في معانيها ودلالاتها من مجتمع إلى مجتمع آخر ولذلك فالجنوح عن تلك المعايير أمر نسبي والسلوك الشاذ في ثقافة ما قد يكون سلوكاً عادياً بالنسبة لمعايير وقيم ثقافة أخرى فالسرقة مثلا : تعدّ من الجرائم في المجتمعات الحديثة ولكنّها كانت مباحة عند كثير من الشعوب البدائية والقديمة حتى أنّها كانت نوعاً من أنواع البطولة .

و إذا كان ثمّة فرق ما بين الشخصيّة والثقافة فإنّ ذلك يعود إلى الفرق في الأسس التي تقوم عليها كلّ منهما . فالشخصيّة تعتمد على دماغ الفرد وجهازه العصبي ودورة حياتها ما هي إلاّ مظهر من مظاهر دورة حياة الجسم الإنساني .أمّا الثقافة فتستند إلى مجموع أدمغة الأفراد الذين يؤلّفون المجتمع.

فتأثير الثقافة قوي وفاعل في الحفاظ على النسق الاجتماعي السائد ويتجلّى ذلك فيما تقدّمه إلى أفراد المجتمع في الجوانب التالية :

.

-توفّر الثقافة للأفراد تفسيرات جاهزة عن الطبيعة والكون وأصل الإنسان ودورة الحياة.

-توفّر الثقافة للفرد المعاني والمعايير التي يستطيع أن يميّز في ضوئها ما هو صحيح من الأمور وما هو خاطئ.

-تنمّي الثقافة الضمير الحيّ عند الأفراد بحيث يصبح هذا الضمير فيما بعد الرقيب القوي على سلوكاتهم ومواقفهم.

-تنمّي الثقافة المشتركة في الفرد شعورا بالانتماء والولاء فتربطه بالآخرين في جماعته بشعور واحد وتميّزهم من الجماعات الأخرى.

-وأخيرا تكسب الثقافة الفرد الاتجاهات السليمة لسلوكه العام في إطار السلوك المعترف به من قبل الجماعة.